مفتاح شخصيته

مفتاح الشخصية هو الأداة الضغيرة التى تفتح لنا أبوابها، وتنفذ وراء أسوارها وجدرانها، وهو كمفتاح البيت فى كثير من المشابه والأغراض، فيكون كالحصن المغلق ما لم تكن معك هذه الأداة الصغيرة التى قد تحملها فى أصغر جيب، فإذا عالجته بها فلا حصن ولا إغلاق!

وليس مفتاح وصفًا له ولا تمثيلا لشكله واتساعه، وكذلك مفتاح الشخصية ليس بوصق لها ولا بتمثيل لخصائصها ومزاياها، ولكنه أداة تنفذ بك إلى دخائلها ولا تزيد.

وكل شخصية إنسانية مفتاح صادق يسهل الوصول إليه أو يصعب على حسب اختلاف الشخصيات. . . وهنا أيضًا مقاربة فى الشكل والغرض من مفاتيح البيوت. فرب بيت شامخ عليه باب مكين يعالجه مفتاح صغير، ورب بيت ضئيل عليه باب مزعزع يحار فيه كل مفتاح.

فليست السهولة والصعبة هنا معلقتين بالكبر والصغر، ولا بالحسن والدمامة، ولا بالفضالة والنقيصة، فرب شخصية عظيمة سهلة المفتاح، ورب شخصية هزيلة ومفتاحها خفى أو عسير.

وقد يحيرنا الرجل الذى قيل فى وصفه مثل ما قيل فى ابن عباد:

لا تمدحن ابن عباد وإن هطلت ... يداه بالجود حتى شابه الديما[1]

فإنها خطوات من وساوسه ... يعطى ويمنع لا بخلا ولا كرما

فإننا لا نستطيع أن ننفذ منه إلى مواضع اللوم أو مواضع الثناء، ولا ندرى حقا أعمله من الكرم أم من البخل، ومن الرفعة أم من الخسة، ومن الشجاعة المحمودة أم من الجبن المذموم؟ وغاية ما ننهى إليه أن نفض المشكلة

---

(١) الديم: جمع ديمة، وهى السحابة الممطرة.

بكلمة واحدة هى الوسواس وهى حيلة تلجئنا إليها قلة الحيلة، لأن تفسير الأعمال بالوسواس يفيدنا فى تقدير صاحبها وتقدير أعماله وأخلاقه، ولكنه تفسير له معنى واحد فى النهاية: وهو ترك التفسير.

قد تحيرنا هذه الشخصيّة المنقوصة ولا تحيرنا الشخصية الكاملة التى تروعنا بفضائلها ومزاياها، ثم لا نستغرب منها فضيلة أو مزية بالقياس إلى انتظام عملها واتصال أثرها، كالشمس الطالعة تروعنا بإشراقها فى أوقاتها وبروجها، ثم لا تحيرنا عين كما تحيرنا الذبالة الضئيلة تومض لحظة وتختفى من بعيد.

وفى اعتقادنا أن شخصية عمر من أقرب الشخصيات العظيمة مفتاحًا لمن يبحث عنه، فليس فيها باب مضل الفتح وإن اشتملت على أبواب ضخام.

وقد ذكرنا فى الفصل السابق أن إيمان عمر هو الضابط الذى يسيطر على أخلاقه وأفكاره كما يسيطر على دوافعه وسوراته، ولكن الذى نريده بمفتاح شىء آخر غير معرفة الضابط الذى يسيطر عليها: نريد السمة[1] التى تميزه بين العظماء حتى فى الإيمان وسيطرته على الأخلاق والأفكار والدوافع والسورات، فإن الإيمان ليقوى فى نفوس كثيرات ثم تختلف آياته وشواهده باختلاف تلك النفوس، وهنا نبحث عن "مفتاح الشخصية" لنعرف به الفارق بين الإيمان فى طبيعة عمر وبين الإيمان فى طبائع غيره من الأقوياء.

والذى نراه أن "طبيعة الجندى" فى صفها المثلى هى أصدق مفتاح "للشخصية العمرية" فى جملة ما يؤثر أو يروى عن هذا الرجل العظيم.

فأهم الخصائص التى تتجمع "لطبيعة الجندى" فى صفتها المثلى للشجاعة والحزم والصراحة والخشونة والغيرة على الشرف والنجدة والنخوة والنظام والطاعة وتقدير الواجب والإيمان بالحق وحب الإنجاز فى حدود التبعات أو المسؤليات.

---

(١) السمة: العلامة الشارة المميزة.

هذه الخصائص قد تجمعت بعد ألوف السنين من تجارب الأمم فى تعبئة الجيوش حتى عرف الناس أخيراً أنها لازمة للجنجى فى أمثل حالاته. فما من خاصة منها يستغنى عنها الجندى الكامل الذى تحلى بأجمل صفاته وألزمها لتحقيق وجوده.

فانظر إلى هذه الخصائص جميعها هل تجدك محتاجًا إلى التنقيب طويلا عن واحدة منها فى نفس عمر؟ هل تجك محتاجًا إلى تعمل أو استقصاء لجمع أشتاتها والاهتداء إلى شواهدها ومواقعها؟

كل هذه الخصائص عمرية لا شك فيها. فهو الشجاعة، الحازم الصريح، الخشن، المطيع، الغيور على الشرف، الشريع النجدة، المحب للنظام، المؤمن بالواجب والحق، الموكل بالإنجاز، العارف بالتبعات والمسؤليات.

هذه الخصائص واضحة كلها فى عمر، وعمر وحده واضح بين أمثاله فى جميع هذه الخصائص، حتى ليخيل إلينا لو أن أحداً مولعًا بتأليف الألغاز سأل عن عظيم فى الإسلام والعروبة متصف بجميع هذه الخصائص على أصدق وأبرز حالاتها لكان الواجب الواحد عن سؤاله اسم عمر بن الخطاب.

وقد يكون العجب من توافر هذه الخصائص فى تفريعاتها الثانوية وأشكالها العارضة أبلغ وأدل على العمق والتأصل من توافر الخصائص التى هى بمثابة الأصول الجامعة فى طبائع الجنود.

فالنظام مثلا ليس بالخلق الأصيل فى الجندى الباسل، فقد ينساق إليه بطبعه وقد يحتاج إلى تعوده وإدمانه حتى يكسبه بطول المرانة.

لكن النظام كان خلقًا أصيلاً فى طبيعة عمر حتى فيما يتفرع عليه ويدخل منه فى عداد الأشكال والنوافل[1].

---

(١) النوافل: جمع نافلة، وهى الزيادة.

أرأيته وهو يصلى بلناس فلا يكبر حتى يسوى الصفوف ويوكل رجلاً بذلك؟ أرأيته وهو يرى الناس يجتمعون بالمسجد فى شهر رمضان أوزاعًا متفرقين حول كل قارىء فيأمرهم أن يجتمعوا إلى قارىء واحد؟ أرأيته وهو يحمل الدرة لينبه المخالفين فى الطريق ويذكرهم هيبة القانون؟ أرأيته وهو يركب فى السوق فيكسر ما برز من الدكاكين ويخفق التجار بالدرة إذا تكوفوا[1] على الطعام وقطعوا طريق السابلة؟ أرأيته وهو لا يزال يأمر بالمثاعب[2] والكنف[3] أن تقطع عن طريق المسلمين؟ أرأيته وهو ينهى الولاة عن الاتكاء فى مجالس ويكتب إلى عمرو بن العاص "وقع إلى أنك تتكىء فى مجلسك، فإذا جلست فكن كسائر الناس ولا تنكىء"!

بل أرأيته وهو يرعى المراتب فينزل درجة من سلالم المنبر بعد أبى بكر لأن الخليفة الأول أحق منه بالتقديم؟

ذلك هو السمت العسكرى بالفطرة التى فطر عليها، وليس هو السمت العسكرى بالأسوة والتعليم.

والفطرة التى فطر عليها كان يحب ما يحسن بالجندى فى بدنه وطعامه، ويكره ما ليس بالمستحسن فيه، فكان يقول: "إياكم والسمنة فإنها عقلة[4]، وكان يقول: "إياكم والبطنة فإنها مكسلة عن الصلاة ومغدة للجسم ونؤدية إلى القسم وعليكم بالقصد فى قوتكم فهو أبعد من السرف أصح للبدن وأقوى على العبادة" وكان يأمر بالجد ويحذر من المهازل لأن "من كثر ضحكه قلت هيبته، ومن كثر سقطه[5] قل ورعه". وكان يمشى "شديد على الأرض جهورى الصوت" كما يمشى الجنود وكما يتكلمون، وكان يأمر بتعلم الرماية

---

(١) تكوفوا على الطعام: اجتمعوا عليه. (٢) المثاعب: مسايل الماء.

(٣) الكنف: جمع كنيف هو الحظيرة من الخشب أو الشجر تتخذ للإبل والغنم لتقيها الحر والبرد.

(٤) العقلة: القيد والعقال. (٥) السقط: الخطأ من القول والفعل.

والسباحة والفروسية والمصارعة وكل رياضة يتدرب عليها الجندى وتهذب بها الأبدان والأخلاق.

وإذا ارتقينا من هذا النظام الأشمل والتقسيم الأعم والأكمل فهناك عمر بن الخطاب الذى دون الدواوين وأحصى كل نفس فى الدولة الإسلامية كأدق إحصاء وعاء الموكلون بالتنجيد فى العالم الحديث. فما من رجل أو امرأة أو طفل إلا عرف اسمه وعرف مكانه وعرفت حصته من بيت مال المسلمين. وما من مجاهد إلا عرفت له رتبته من السبق والتقديم على حسب المراتب التى يمتاز بها الجنود. . فالحاضرون وقعة "بدر" هم المقدمون بين المجاهدين، والحاضرون فى "الحديبية" يأتون بعدهم فى التقديم، والذين اشتركوا فى حرب الردة بعد هؤلاء وهؤلاء، والذين حاربوا فى معارك الروم والفرس ومعهم أبناء الغزاة فى بدر يلحقون بمراتب هؤلاء المتقدمين، وقس على ذلك ما يليه من سائر المراتب فى حقوق التقديم والتقسيم.

ثم هناك عمر بن الخطاب الذى عشر الجنود أى جعلهم عشرات عشرات، ثم قسمهم إلى كتائب وبنود.

وهناك عمر بن الخطاب الذى لم يدبر قط تدبيراً كبيراً أو صغيراً فى شئون الدولة إلا بنظام لا يختل أو على أساس لا يحيد.

وقد كانت له طريقة الجند فى التصريف السريع الذى ينفذ إلى الغرض من أقرب طريق، فلما تشاور المسلمون فإذا يصنعون بسهيل بن عمرو، خطيب المشركين يومئذ وأقدر الخائضين منهم فى الإسلام، قال عمر بن الخطاب: "يا رسول الله! انزع ثنيتيه[1] السفلين فلا يقوم عليك خطيباً أبداً". وكان سهيل أعلم - أى مشقوق الشفة السفلى - فإذا نزعت ثنياه فقد عجز عن الخطابة من غير ما حاجة إلى عهد أو تحذير أو شغل شاغل بإسكاته والرد عليه.

(١) الثنية: من الأسنان، جميعها ثنايا وثنيات، وفى الفم أربع.

والقضـاء لم يكن من لوازم "الطبيعـة الجندية" وإن تولاه القادة والجند فقى أيام الفتن والأيان التى تقام فيها الدول الناشئة والنظم الجديدة.

ولكن كم قضيـة لعمر بن الخطاب تذكرنا بالقضـاء العسكرى التى يُمنع الضرر من أقرب الطرق ويحمىَ الأكثر بالحد من حقوق الأقلين؟

هتفت امرأة باسم نصر بن حجاج وتمنت أن تشرب الخمر وتلقاه فأرسل إليه "فإذا هو أحسن شعرًا وأصبحهم وجهًا. فأمره أن يجسم[1] شعره، فظهر جبـينه ووجنتاه فازداد حـسنًا، ثم أمره أن يعتم فـزادته العمامـة زينة وغواية، فقـال: لا يسكن مـعى رجل تهتف به العـواتق[2] فى خدورها، وزوده بمال وأرسله إلى البصرة ليعمل فى تجارة تشغله عن النساء، وتشغل النساء عنه.

وفى القضية جور على نصر بن حـجاج لا جدال فيه، ولكن فى سبيل مصلحـة أكبر وأبقـى، أو فى سبيل مـصلحة يرعاها "الحكـم العسكرى" فى أزمنة كزمان عمـر، ويقضى فيها بما هو أعجب من إقصـاء نصر بن حجاج، يرعاها أحـيانًا يمنع الإقـامة بمكان، ومنع المرور عن طريق، وتحـريم تجارة لا حرام فيـها، ومراقبة إنـسان يخشى أن يقود إلى جريمـة، وتقييد السـهر بعد موعد من الليل.

ولسنا نقول إن هذا الحكم فى قضية نصر بن حجاج كان حكمًا لزامًا لا محيص عنه ولا مأخـذ عليه، ولكنا نقول إنه حكم فيه تلك الصبـغة العمرية التى سميناها "مفتاح شخصيته" وهى المقصودة بما نكُبته الآن.

وقـد كان له فى قـضـائه ذلك الحزم الذى يقـطع اللجاجـة[3] وينهض بالحجة على كل ذى خلاف كلما اشتجر[4] الخلاف: كتب إليه أبو عبيدة من دمشق أن عـمر ابن معد يكرب وأبا جندل وضـرارًا وجماعة من علية القوم

---

(١) يحم شعره: يقصره.
(٢) العواتق: جمع عاتق وهى الشابة الصغيرة.
(٣) اللجاجة: تمادى الخصمين.
(٤) اشتجر: تنازعوا.

والوجوه شربوا الخمر سئلوا فأجابوا "إننا خيرنا فاخترنا. قال: "هل أنتم منتهون" ولم يعزم[1]" . . وكأن أبا عبيدة تحرج من عقاب هؤلاء العلية فرفع أمرهم إلى الخليفة يستفتيه، فلم يلبث البريد أن بلغ المدينة حتى عاد إليه يأمره أن يدعوهم على رؤوس الأشهاد ويسألهم سؤالا لا يزيد عليه ولا ينقص منه: أحلال الخمر أم حرام؟ فإن قالوا حرام خليجلدهم، وإن قالوا حلال فليضرب أعناقهم. فقالو: بل حرام، فجلدوا وتابوا.

وربما تجمع للرجل كل ما فى "طبيعة الجندى" من الخصائص وبقيت محبوسة فيه لا يدرى بها الناس إلا أن يأتى بعمل ينم عليها، فدين نفسه بطبيعته تلك ولا يدين غيره، ويكون مطبوعًا على أن يطيع ولا يكون مطبوعًا على أن يطاع، وإذا جاءته طاعة المطيعين له فإنما تجيئه من سلطان النظام وحكم الشرع وغلبة العادات، لأن الشجاعة مثلا لا تلازم الهيبة فى كل حال، فقد يكون الشجاع مهيبًا ويكون غير مهيب أحيانًا ممن تقتحمهم الأنظار ويجترىء عليهم المستخفون.

أما عمر بن الخطاب فقد كانت له "طبيعة الجندى" ظاهرة باطنة، تبادر القلوب كما تبادر الأنظار، وتلازمه كأنها عضو من أعضائه، فما يجترىء عليه مجترىء إلا أن يطعمه هو، ويسهو عن نفسه لحظة ليغرية بالاجتراء.

وهى فى موقف الأمر تخيف من لا يخاف ويجفا منها من يحتمى بجاه أو كبرياء. شكا إليه رجل من بنى مخزوم أبا سفيان لظلمه إياه فى حد كان بينهما، فدعا بأبى سفيان والمخزونى وذهبوا إلى المكان الذى تنازعه، ونظر عمر فعرف صدق الشكوى ونادى بأبى سفيان: خذ يا أبا سفيان هذا الحجر من هنا فضعه هنا. . فأبى وتردد، فعلاه بالدرة وهو يقول: خذه فضعه هنا فإنك ما علمت قديم الظلم، فأخذ أبو سفيان الحجر ووضعه حيث قال، ولو

(١) لم يعزم: لم يحدد حكمًا قاطعًا، وعزيمة الله، فريضته التى افترضها.

غيـر عمـر أمره هذه الأمر لاسـتكبر أن يطيع أو شنهـا عليه شـعواء لا تؤمن جريرتها.

كان يـومًا[1] فى مـجلس عمـر وزياد بن سمـية[2] يتكلم وهو يومئذ شاب، فأحسن كـعادته فى مجال الخطابة والمشورة، فأعـجب به عمر وهتف به: لله هذا الغلام! لو كان قريشًا لساق العرب بعصاه.

وكان على بن أبى طالب إلى جانب أبى سفيان، فمال إليه هذا وهمس فى أذنه كلامًـا فخواه أنه يعـرف من أبو ذلك الغلام من قـريش. قال على: فمن؟ قـال: أنا.. قال فمـا يمنعك من استلحـاقه؟ فهـمس له: أخاف هذا الجالس أن يخرق على هابى![3]

وخليق بمثل هذا الرجل ألا يكون له شعار غير شعار الجند حيث كانوا: الأمر والأمر، والطاعة هى الطاعة.

وخليق بالناس أن يفهـموا ذلك عنه بغير بيـان، لاسيما إذا فهـموا قبل ذلك أنه متى وجبت الطاعة كان هو أول من يطيع. ذلك هو الجندى المطبوع.

جندى من جنود الله فى معترك الحق والإيمـان. وإذا استوفينا المثل إلى أقصاه فـالقانون المطاع هوالقرآن، والقـائد الأعلى هو النبى الذى يوحى إليه، وليس أحد بعـد ذلك أكبـر من أن يطيع. يأمر الله فـالطاعة واجب لا هوادة فيه.

ويأمر القـائد الأعلى فقد يراجعـه من دونه ويرتفعان معًـا إلى القانون، لأن الطاعة لا تمنع المراجعة والمشاورة، ولكنهـا تمنع التمرد على القائد الأعلى

---

(١) أى أبو سفيان.

(٢) اشتهر باسم "زياد بـن أبيه" ولم يكن معروف الأب، وفى عهد معـاوية، شهد ناس من المسلمين أنه ابن أبى سفيان معاوية "أى اعتـرف به أخًا له" وولاه البصرة. اشتهر بالذكاء وسعة الحيلة والخطابة.

(١٣) الإهاب: الجلد.

وإنما سلطانه حيثما استقر على قرار، فإذا رجع القائد عن أمره فحص، والمراجعة إذت خير لا ضرر فيه، وإذا مضى فى أمره فلا خوف إذت فيما يجب: فالذى يجب إذن واحد، وهو أن يطاع.

كذلك راجع عمر النبى فى مسائل شتى، فأخذ النبى برأيه فى بعض هذه المسائل وخالفه فى بعضها، فلم تكن طاعته فيما خولف فيه أقل ولا أضعف مما ووفق عليه.

وكذلك راجع الخليفة أبا بكر فى كبريات المسائل وصغارها، فكان أبو بكر يثوب[1] إلى رأيه كثيراً، ويصر على ما بدا رأى الحسنى فى الإصرار، فيطيع عمر أمره بعد ذلك كأن لم يكن خلاف.

وإذا امتنعت المراجعة فليس الرجل عند ذلك بواهن عن احتمال التبعة، وتصريف الرأى، والاضطلاع بأعباء الموقف كيف كان.

اشتد المرض بالنبى عليه السلام فقال: ائتونى بكتاب أكتب لكم كتابًا لا تضلوا بعده.. قال عمر: إن النبى ﷺ غلبة الوجع، وعندنا كتاب الله حسبنا.

عندنا كتاب الله حسبنا.

عندنا القانون الأعلى.

أما القائد الأعلى فهو فى مرضه بحال لا تستحب معها المراجعة، وهو مع ذلك لم يصر على أمره ولم يعاود طلب الورق للكتابة، وإنما قال حين كثر اللغط بين الصحابة: قوموا عنى. ولا ينبغى عندى التنازع، ثم عاش عليه السلام أيامًا ولم يذكر الكتاب.

فالرجل يطيع إذا استقام الأمر واستقرت التبعة.

---

(١) يثوب إلى رأيه: يرجع إليه ويأخذ به.

وكان يراجع إذا اتسع مجال المراجعة.

فإن لم يكن هذا ولا ذاك فهو ضليع بالتبعة التى يوجبها على نفسه، وقمين أن يذهب إليها ولا ينكل عنها.

وتلك سنة جرى عليها عمر عن علم وقصد، ولم يجر عليها عن بداهة وإلهام وكفى، وأشار إليها فى كلامه غير مرة فى خطبة من خطبة ما فحواه: (.. كنت مع رسول الله ﷺ فكنت عبده وخادمه وجلوازه[1]، وكان كما قال الله تعالى: "بالمؤمنين رؤوف رحيم"، وكنت بين يديه كالسيف المسلول، إلا أن يغمدنى أو يتهانى عن أمر فأكف عنه، وإلا قدمت على الناس لما كان أمره..". فهو جلواز النبى وسيفه المسلول كما وصف نفسه.

وهو على أقوم مثال للجندى الفاضل العليم بموقع الطاعة، وموقع المراجعة، وموقع المشاورة، وهو مع التبعة حيث لا مهرب منها، وتلك وهى الجندية فى صورتها المثلى.

وما نحسبه كان يراجع ويشاور إلا لغرض واحد، وهو الوصول إلى الأمر الذى وما نحسبه كان يراجع ويشاور إلا لغرض واحد، وهو الوصول إلى الأمر الذى يحمل التبعة فيه.

فإذا أعفى نفس من التبعة بمراجعة رؤساء، وأعفى نفسه من التبعة بمشاورة مرءوسية فقد عرف كيف ينبغى أن يطيع، وعرف كيف ينبغى أن يطاع، وعرف ما يتوق كل جندى أن يعرفه حين يؤمر وهو توضيح ما يطلب منه وما يطلب من غيره، وتقرير مكان التبعات حين تقسم التبعات.

ولقد كانت له مخالفات ليست من قبيل المراجعة ولا المشاورة التى تعمل فيها الروية عملها، أو تختلف مذاهب الآراء فيها.

---

(١) الجلواز: الشرطى.

كانت هذه أيضًا من مخالفات "الجندى" التى يبلغ إليها كلما غلبته الحماسة وثارت به الحمية.

فلما كان يوم أحد جاء أبو سفيان ينادى على مسمع من المسلمين: أفيكم محمد؟ فقال رسول الله: لا تجيبوه!

فعاد ينادى مرتين: أفيكم محمد؟ فلم يجيبوه!

فسأل ثلاثًا: أفيكم ابن أبى قحافة[1]؟ فسكنوا

ثم سأل: أفيكم ابن الخطاب؟ وكررها ثلاثًا. فلما لم يسمع جوابًا قال لقومه: أما هؤلاء فقد كفيتموهم![2]

كثير على عمر أن يحتوى صبره فى هذا الموقف أكثر مما احتواه. فلما قالها أبو سفيان حتى صاح من مكانه: "كفرت يا عدو الله. ها هو ذا رسول الله ﷺ، وأبو بكر وأنا أحياء! ولك منا يوم سوء!".

هذه مخالفة لا مراجعة فيها ولا مشاورة.

لكنها من مخالفات الجند، ولهم ولا شك مخالفات كما لهم طاعات.

نعم كانت له مخالفاتهم وطاعاتهم، وكانت له كذلك فكاهاتهم وأهواؤهم التى هى أخص بهم من سائر الفكاهات والأهواء.

فكانت تعجبه الفكاهة التى توحى إليه معنى مضحكًا فيه صراحة وخشونة، ومنها الفكاهة التى نسميها اليوم "بالنكات العملية"

فرغ رسول الله يومًا من بيعة الرجال وأخذ فى بيعة النساء، فاجتمع إليه نساء من قريش فيهن هند بنت عتبة[3] متنكرة، لما كان من صنيعها بحمزة[4]

---

(١) هو أبو بكر الصديق رضى الله عنه.

(٢) حدث هذا بعد نهاية المعركة. وقد ظن أبو سفيان أنهم ماتوا فى الموقعة.

(٣) أى تلبس النقاب وهو الحجاب.

(٤) هند: زوج أبى سفيان، وهى التى شك بجثة حمزة بعد أن قتل فى أحد"

رضى الله عنه، فهى تخاف أن يأخذها رسول الله بصنيعها. فلما دنون منه ليبايعه قال عليه السلام: تبايعنى على ألا تشركن بالله شيئًا.

قالت هند: والله إنك لتأخذ علينا أمرًا ما تأخذه على الرجال، وسنؤتيكه.

قال: ولا تسرقن.

قالت: والله إن كنت لأصيب من مال أبى سفيان الهنة[1] والهنة ما أدرى أكان ذلك حلالاً لى أم لا.

قال أبو سفيان وكان شاهدًا: ما ما أصبت فيما مضى فأنت منه فى حل.

فقال رسول الله: وإنك لهند بنت عتبة!

قالت: أنا هند بنت عتبة فاعف عما سلف، عفا الله عنك.

فمضى رسول الله فى أخذ البيعة وعاد يقول: ولا تزنين.

قالت: يا رسول الله هل تزنى الحرة؟

قال: ولا تقتلن أولادكن!

قالت: قد ربيناهم صغارًا وقتلهم يوم بدر كبارًا، فأنت وهم أعلم فضحك عمر بن الخطاب حتى استغرب[2]، وكان قليل الإغراب فى الضحك، فإن استغرب ضاحكًا بين حين وحين فإنما تُمثل هذه الفكاهة.

وعلى هذا النحو فكاهته مع خادمة أسلم وابنه عاصم: دخل عليهما وهما يغنيان غناء يشبه الحداء فوقف يستمع ويستعيد. وشجعهما إصغاؤه واستعادته فسألاه: أينا أحسن صنعة؟ قال: مثلكما كمثل حمارى العبادى. سئل: أيهما شر؟ فقال هذا ثم هذا!

---

(١) الهنة: مؤنثة وهو الشىء.

(٢) استغرب فى الضحك: بالغ فيه.

ومن فكاهته القوية تلك المزحة المرعبة التى أطار بها لب الخطيئة ليكف عن هجاء الناس. فدعا بكرسى وجلس عليه ودعا بالخطيئة فأجلسه بين يديه، ودعا بأشفى[1] - أى مثقب، وشفرة، يوهمه أنه سيقطع لسانه، فضج الخطيئة وتشفع الحاضرون فيه، ولم يطلقه حتى أخذ عليه عهداً لا يهجون أحداً بعدها، واشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم. فما هجا أحداً بعدها وعمر بقيد الحياة.

تلك أمثلة من فكاهته الخشنة التى تعهد فى طبيعة الجند، وهى فكاهة لا يطمع منه فى غيرها.

وشاءت الجاهلية أن تورطه فى بعض أهوائها فكان هواه منها معاقرة الخمر يحيها ويكثر منها. وقد نرى أنه هوى قريب من مزاج الجند غير نادر فيهم، إذا الخمر نوافق ما فيهم من سورة طبع وتشغلهم عن الخطر أو تعيبهم عليه، وتصاحبها فى كثير من الأحياء ضجة بألفوانها.

وقد أحب ضجة الدفون وهى فى سياق هذا الهوى، وظل يحبها بعد إسلامه وخلافته وإن كرهها فى غير الأعراس.. فسمع ضوضاء فى دار فسأله: ما هذا؟ قيل له: عرس! فقال: هلا حركوا غرابيلهم؟ أى الدفوف!

على أنه كان يحب الغناء جملة ويطيل الإصغاء ما لم يشغله عن مهم من أمر دينه أو سياسته. فسمع صوت حاد وهم منطلقون إلى مكة فى جوف الليل فما زال يوضع راحلته[2] حتى دخل بين القوم يسمع إلى مطلع الفجر، ثم قال للقوم: إيه! قد طلع الفجر. أذكروا الله.

فطبيعة الجندى فى الفاروق تامة متكاملة بأصولها وفروعها. ويندر أن تتم طبيعة شاملة فى رجل واحد إلا أن يكون كعمر فى أصلة الطبع وصراحته

---

(١) الأشفى: المثقب، والشفرة، والسكين العظيمة

(٢) يوضع راحلته: يحملها على السير السريع.

وخلوصه واتساقه، فلا يحذل منه جزء جزءاً، ولا تقبل منه وجهة حيث تدبر أخرى، وحينئذ لا عجب أن تم له طبيعة واحدة بالغة بلغت من تعدد العاصر والألوان والشيات. كما أنه لا عجب أنيشبه الولد أباه لأنه أصيل النسب، بالغًا ما بلغ التعدد فى مشابه الأخلاق والجوارح والأعمال.

ولهذه الطبيعة أثرها فى أمور لا تمت إليها على ظاهرها. كأثرها فى تحريم رق العربى وفى اخلاء الجزيرة من غير العرب، فهى شنشنة الغيور على الحوزة، الموكل بحماية الذمار[1].

ولها أثرها فى سياسته مع الأمم حيث يأمر الجند بتصديق كلمة الشرف والبر بالوعد ولو كان باليد أو نبأة من صوت. فقد أوجب على قادته وجنوده إذا نزلوا بلاد الأعاجم فبدرت منهم إشارة أو نبأة يحسبونها عهداً أن ينجزوا هذا العهد ولا ينكصوا فيه، ولو أتيح لهم أن يتعللوا بجهل اللغة وغرابة العادات والمصطلحات. وإنك على الجملة لا تعرض عملا من أعمال الفاروق العامة والخاصة على هذه ا لطبيعة إلا وجدت له قراراًفيها ووجدت عليه صبغة منها.

فهى بلا ريب أقرب مفتاح لهذه الشخصية العظيمة، وبها تتميز خصائصه التى لا يشترك فيها أناس مطبوعون على غيرها وإن كانوا عظماء أقوياء.

وقد أسلفنا الإشارة إلى الإيمان القوى وقلنا إنه ضابط لأخلاقه وسوارته، وليس بمفتاح يكشفها ويفتح مغالقها، لأن الإيمان القوى نفسه يحتاج فى فهمه وتميزه إلى المفتاح الذى يفرق بين ضروب الإيمان عند الأقوياء، وليست القوة كلها كلما لا يخفى معدنًا واحداً فى البواعث والمظاهر والآثار.

---

(١) الذمار: ما يلزمك حمايته وحفظه والدفاع عنه، والحرم والأهل والحوذة.

وهكذا كان إيمان عمر فى سلوك دنياه وسلوك دينه: كان إيمان الطبيعة الجندية فى حالتها المثلى.

ففى سلوك دنياه كان يعيش أبداً عيشة المجاهد فى الميدان.. فآثر الشظف وقنع منها بأقل ما يكفيه ولا غنى عنه.

وفى سلوك دينه كان موقفه بين يدى الله أبداً كموقف الذى يعلم أنه لا يلقى مولاه إلا ليؤدى الحساب على الكثير والقليل.. فإن تجئه المساحة جاءت عفواً لا ينسيه تحضير الحساب.

وكان معتمداً على الغيب موصولا بالقدر يركن إليه كأنه يراه بعينيه. ومن أدب كل طبيعة تستحضر الموت أن تنظر إلى الغيب، وتستطلع طلعة[1] وتنتظر منه الحماية والهداية.

فاشتهر عن كثير من كبار القادة أنهم يؤمنون لهم بنجم سعد يلحظهم، أو بغاية أجل لا يعجلون عنها، أو بإلهام يهديهم إلى النجاة ويرون أماراته وعلاماته فى الرؤى والهواتف وكلمات الفأل والبشارة.

وكان عمر يتفاءل بالأسماء وينظر فى الرؤى والمنامات، ويروى عنه فى روايات متواترة أنه أنبىء بموته فى منام، وأنه رأى كأن ديكا ينقره نقرتين، وفسروا له الديك برجل من العجك يطعنه طعنتين.

وروى محارب بن دثار عنه أنه سأل رجلا: من أنت؟ فقال: قاضى دمشق. قال: كيف تقضى: أقضى بكتاب الله. فسأله: وإذا جاءك ما ليس فى كتاب الله؟ فأجابه: أقضى إذاً بسنة لله، فسأله ثانية: وإذا جاءك ما ليس فى سنة رسول الله؟ قال: أجتهد برأيى وأؤامر جلساتى. فاستحسن قوله وأوصاه إذا جلس للحكم أن يدعو الله قائلا: "أنى أسألك أن أقضى بعلم، وأن أقضى بحلم، وأسألك العدل فى الغضب والرضا".

---

(١) يقال: فلا أطلعنى على الأمر، أو أطلعنى طلعة بكسر الطاء.

ثم رجع القاضى بعد فترة فسأله عمر: ما أرجعك! قال: رأيت الشمس والقمر يقتتلان، مع كل واحد منهما جنود من الكواكب. فسأله: مع أيهما كنت!

فقال: مع القمر!!

فتأمل قليلا ثم ذكر قوله تعالى: " وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة" ثم قال: لا تلى لى عملاً[1].

هذه رواية من روايات كثيرة عن المنامات ونظره فيها، لا ندرى مبلغًا من الصحة فى تفصيلاتها، ولكنها كلها تدل على الغرض الذى قصدنا إليه وهو استهداء الغيب من طريق الرؤى والعلامات، إلى جانب الإيمان القوى الذى لا يسهوا عن عالم الغيب طرفة عين.

ومن الحق أن نضيف هنا أن الإيمان القوى ليس بمستغرب فى الطبيعة الجدية، بل ربما كانت طبيعة الجهاد أقرب شىء إلى طبيعة الإيمان.

وأن نضيف هنا استدراكا آخر لعله أدعى إلى البحث من القول فى الجهاد والإيمان، وذلك أن العدل لا يناقض طبيعة الجند عامة، وأن طبيعة الجند لا تستلزم العدوان فى كل محارب، ولاسيما المحارب نضحًا[2] عن دين وفقًا لشريعة.

فالعدل يفتقر إلى شجاعة وشرف، وهما خصلتان مطلوبتان فى الجندى المطبوع فأما الشجاعة فى الرجل العادل فتحميه أن يحابى الأقوياء وهو جبن، وأما الشرف فيحميه أن يجوز عل الضعيف وهو خسة، ولا تناقض بين الخصال.

---

(١) لا تلى: لا هنا وليست ناهية، فالفعل بعدها مرفوع.

(٢) فضحا: دفاعًا.

إنما المحارب المعتدى هو الذى "يحارب لحسابه" كما يقولون، أو يحارب لنفسه مرضاة لطعمه وذهابا مع نزواته، ومن هذا الطراز الاسكندر وتيمور ونابليون.

أما المحارب الذى تقيده إرادة غير إرادته، ويحكمه قانون غير هواه، فالحرب من مثله واجب يلام على تركه وليست بجريمة يلام على اقترافها.

وقد يرى هؤلاء أن أشرف الجهاد جهاد النفس والهوى قبل جهاد الخصوم والأقران كما رأى عمر بن الخطاب.

ومصداق ذلك ظاهر فى كل قائد تدعوه إلى الحرب إرادة إله أو إرادة آمة، أو إرادة ضمير له قانون. فطبيعة الجندى فى هؤلاء لا تناقض العدل إلا كما تناقضه طبيعة الفيلسوف أو طبيعة الفن أو طبيعة التصرف فى شئون المعاش، ولا تناقض بينه وبين واحدة منها، أو هى جميعًا فى هذه الخصلة سواء.

هؤلاء لا يحاربون إلا مكرهين، إذا حاربوا لم يحاربوا لبغى ولا لتنكيل ولو كانوا فى ميدان القتال، وسنتهم هى سنة عمر حين حذر المجاهدين أن يعتدوا لأن الله لا يحب المعتدين. ثم قال: "لا تجبنوا عند اللقاء، ولا تمثلوا عند القدرة، ولا تسرفوا عند الظهور[1]، ولا تقتلوا هرما ولا امرأة ولا وليدًا، ونزهوا الجهاد عن عرض الدنيا، وابشروا بالإرباح[2] فى البيع الذى بايعه به، وذلك هو الفوز العظيم".

وذلك هو الجندى فى حالته المثلى.

وذلك هو المفتاح الصادق الذى لا نعلم مفتاحًا أصدق منه لخلائق هذا الجندى العادل الكريم.

---

(١) الظهور: النصر.

(٢) الإرباح: الحصول على الربح.